رابعًا:

اللّبس الآتي مِن المعجم

1- المشترَك اللّفظيّ:

هذه ظاهرةٌ دلاليّة عامّة، وإمكانةٌ مِن إمكانات الإبانةِ والتّواصل، ولكنّها مَجْلَبةٌ للّبس في مواضعَ؛ ذلك أنّ الكلمة المشترَكة يقع تحتها معنيان أو أكثر، وإذا كان ذلك، فإنّ المرءَ قد يُقيم معنًى مُقامَ آخرَ حتّى مع توافر سياقٍ جُمْليّ، وقد استشعر ابن دُرُستويْهِ أنّ هذه الظاهرةَ مِن معطِّلات التّواصل؛ ذلك أنّ اللّغة موضوعةٌ "للإبانة عن المعاني، فلو جاز وضعُ لفظ واحد للدّلالة على معنيين مختلفَين، أو أحدهما ضدّ للآخر، لَما كان ذلك إبانةً، بل تعميةً وتغطية"[1].

والحقّ أنّ في هذا الرّأيِ المتقدِّم تعميمًا ومغالاة، فالاشتراكُ واقع في اللّغة لا ريبَ، وثَمّ سياقٌ يُحتَكَم إليه في تعيينِ المعاني الصّرفيّةِ، والنّحويّة، والمعجميّة، وليس يصحّ في الفهمِ أنْ يُطَّرَح القولُ بوجود هذه الظّاهرة ظنًّا بأنّها تقودُ إلى الإلباس والتّعميةِ؛ إذْ إنّ اللَّبس آتٍ مِن هذه الظّاهرة ومِن غيرها، ثمّ إنّها ظاهرة لغويّةٌ عامّة، وينبني على هذا الاعتقادِ بأنّ هذا الموضعَ هو مِن مرشِّحات اللّبس في كلّ اللّغاتِ[2].

لننظرْ في هذه الجملِ المصنوعة الآتية:

1- يعقوبُ شاعرٌ مُجيد لا يحسن الهجاء.

2- يعقوب رجل لا يحسن الهجاء.

3- يجب أن تُطيع أمر أبيك.

4- هذا أمرٌ لا أرتضيه.

5- سنحتفل يوم إجازتك احتفالاً عظيمًا.

6- سنحتفل بأحمدَ احتفالاً عظيمًا.

7- هل انتهيت مِن كتابة رسالتك.

---

(1) انظر: السيوطي، المزهر، 1/385، ومهدي عرار، جدل اللفظ والمعنى، 199.

(2) من أمثلة ذلك في الإنجليزية "bill"، فهي تشتمل على معنيين، وهما المنقار وورقة الحساب، والجمل الآتية ملبسة لاحتمالها معنيين:

The bill is large.
The bank was the sense of the crime.
John was looking for the glasses.

انظر أمثلة هذا المطلب: أولمان، دور الكلمة، 126-146، وبالمر، علم الدلالة، 71، وجرومان، علم الدلالة، 40، Kooij, Ambyuity, P.52, 126.

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

يظهر مِن الجملةِ الثّانية أنّها محتمِلة ملبِسة؛ ذلك أنّ كلمة "الهجاء" يقع تحتَها معنيان متباينان، فقدْ يكون المعنى الكلّيّ مِن الجملة أنّ يعقوبَ رجلٌ لا يُحسن الهجاءَ الذي هو ضدّ المدح، وقدْ يكون المتعيّن أنّه أمّيّ لا حظَّ له مِن العلمِ، فليس يُحسِن التّهجّي، ولكنّ اللّبسَ منتفٍ عن الجملةِ الأولى؛ ذلك أنّ السّياقَ البِنيويّ يرجِّح معنًى فردًا، وهو "الذمّ"؛ لأنّ المُتحدَّث عنه شاعرٌ قد اكتسب نصيبًا مِن العلمِ باللّغة ومبادئها.

أمّا الجملةُ الثّالثة فموضعُ النّظر فيها الكلمةُ "أمر"، وليس يخفى أنّ كلمة "الأمر" متردّدة بين معنيَين: أوّلهما الأمرُ الذي فيه إلزام وفرضٌ، وثانيهما الشّأنُ وجملةُ الأحوال، ويَصْدُق الأخيرُ على قولِه –تنزّه اسمه- : "وَما أَمْرُ فِرعَونَ بِرشيدٍ"[3]. والمعنى: جملةُ أفعاله وشأنه[4]، ولكنّ هذا التّردّدَ غيرُ واقع في الجملةِ الثّالثة؛ إذ إنّ ذكر الطّاعةِ وحقائقَ الحياة يستدعيان في الخاطرِ "الأمر" الذي هو إلزامٌ وفرض.

أمّا في الجملةِ الرّابعة فالمعنيان محتمِلان، والمعنى الكلّيّ أنّ القائلَ لا يرتضي هذا الأمرَ "الإلزاميّ" المفروضَ عليه، أو أنّه لا يرتضي هذا الموقف "أو هذه الحال" بعينِها. أمّا الجملةُ الخامسة فموضعُ النّظر فيها "إجازتك"؛ إذْ إنّه يقع تحتَها معنيان، فقدْ يكون المتعيِّن مِنها الانقطاعَ عن العملِ أو الدّراسة لأجلٍ مسمًّى، وقدْ يكونُ التّخرّجَ والحصول على إجازةٍ في حقلٍ ما. أمّا السّادسة فموضعُ النّظر فيها الكلمة "سنحتفل"، وهي أيضًا متردِّدة بينَ معنيين متقاربَين، وهما الاهتمامُ والاحتفال الذي هو تعبيرٌ عن السّعادة والفرحِ، وقد يكونُ المعنى أنّنا سنهتمّ بأحمدَ اهتمامًا عظيمًا، وقدْ يكونُ أنّنا سنعقد حفلةً عظيمة حبًّا لأحمد.

أمّا الجملةُ السّابعة فهي محتمِلة أيضًا، فالمستفهِمُ قد يسألُ صديقَه عن أطروحتِه الجامعيّةِ، وقد يسأله عن رسالةٍ بريديّة، والحقّ أنّ هذا اللّبسَ قد وَرَدَ عليّ مع صديقٍ سألني قائلاً: هل أرسلتَ إلى فلانٍ الرّسالة؟ فقلت له: أنتظرُ سفرَك حتّى أرسلَها معك؛ ذلك أنّها ثقيلة، فاستدرك على سؤالِه بتجليةٍ قائلاً: "ما عنيت رسالتَك الجامعيّة!" والظّاهرُ مِن هذه الحادثةِ أنّ لَبسًا صريحًا قد وقع، ولولا استدراكُ القطبِ الثّاني لظلّ اللّبس قائمًا، ولمضى القُطب الأوّل لِطيّته وهو يظنّ أنّه أجاب عن سؤالِ صديقِه فوفّاه حقّه.

ويظهرُ تعدّد المعاني والاحتمال الآتي مِن هذه الظّاهرة جليًّا في قول الحقّ – تعالى-:

---

[3] الآية (هود، 97).

[4] انظر: السيوطي، المزهر، 1/362.

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

1- "اهْبِطوا مِصراً فَإنّ لَكُم ما سَألتُمْ"[5].

فقد تُردّد في اقتناصِ المتعيِّن مِن "مصرًا"، فقيل إنّه -تبارك– أراد مصرًا مِن الأمصار، وهي على هذا الوجهِ مصروفة، وقيل إنّه –تبارك- أراد "مصرَ" البلدَ المعروف، فصُرِفت وإنْ كانت مؤنَّثةً مَعْرِفةً؛ لأنّها على ثلاثةِ أحرفٍ أوسطُها ساكن، فجاز أنْ تُصرَف كهندٍ ودعدٍ[6].

ومِن أمثلة اللّبس الآتي مِن المشترَك:

2- هذا النّهارُ بَدا لَها مِن هَمِّها   ما بالُها بِاللّيلِ زالَ زَوالُها

"الهَمّ" في هذا الشّعرِ لا يخلو مِن أحدِ أمرَين:

- إمّا أنْ يكون الهمّ الذي جَمْعه "هموم".
- وإمّا أنْ يكونَ الهمّ الذي هو العَزْم على الشّيء، والمعنيان محتمَلان في هذا السّياقِ[7].

وقدْ يحدثُ أحيانًا أنْ تتضافر مجموعةٌ مِن العوامل لِتَخلُقَ اللَّبس، ومِن ذلك:

3-لا يُبعدُ اللهُ التّلَبّبَ وَالـ   غاراتِ إذْ قالَ الخَميسُ: نَعَمْ

لقد أعرب بعضُهم قوله "نَعَمْ" حرفَ جوابٍ، وهي ليست كذلك، وإنّما هي ههنا واحد الأنعامِ، وهي خبر لمبتدأ محذوفٍ، والمعنى: قال الخميس -وهو الجيش-: هذه نَعَمُ فأغيروا عليها[8]، فالمشترَك اللّفظيّ باعثٌ مِن بواعث اللّبسِ، والحذفُ؛ حذف المبتدأ يفضي إلى مزيدِ لَبسٍ، وتغييبُ المفصِل والتّنغيم في هذا السّياق يزيد ممّا تقدّم، كلّ ذلك يعمل على تخلّقِ اللّبسِ والاشتباهِ.

---

(5) الآية (البقرة، 61).

(6) انظر: سيبويه، الكتاب، 3/242، وقد ذكر الوجه الأخير الفراء، معاني القرآن، 1/43، وقد ذكر الوجهين، والوجه الأخير أحب إليه الأخفش، معاني القرآن، 1/105- 106، وقد ذكر الوجهين المبرد، المقتضب، 3/351، وقد ذكر الوجه الأول، ونفى الأخير ابن الأنباري، البيان، 1/87، وقد ذكر الوجهين العكبري، التبيان، 1/69، وقد ذكر الوجهين أبو حيان، البحر، 1/396-397.

(7) انظر: الفارسي، شرح الأبيات، 586، وقد روي البيت برفع "النهار" ونصبه، ورفع "زوالها" ونصبه أيضا، وفي ذلك وجوه، انظر: 584-591، والشعر للأعشى في ديوانه، 77.

(8) انظر البيت: ابن هشام، المغني، 2/684، وقد نسب المحقق الشعر للمرقش الأكبر، والتلبب لبس السلاح، والمعنى: لا قطع الله عهدي بلبس السلاح.

STUDENTS-HUB.com   Uploaded By: anonymous

2 -وفي بابِ الحديث عن اللّبسِ الآتي مِن المشترَك يعرض مطلبُ آخرُ متّصل به، وهو **اللّبس الآتي مِن ظاهرة "الأضْداد"**؛ إذ إنّ اشتمالَ كلمة واحدةٍ على معنَيين متضادّين قدْ يعمل على نشوءِ اللَّبس، ومِن ذلك "الحَزَوَّر"، وهي تُقال للغلام اليافعِ الذي قارب الاحتلامَ، وتُقال للشّيخ[9]، ولمّا ورد ابن الأنباريِّ على قولِ الشّاعر:

وَإِذا نَزَعْتَ نَزَعتَ مِنْ مُسْتَحْصِفٍ نَزْعَ الحَزَوّرِ بِالرِّشاءِ المُحْصَدِ

تردّد بين المعنيَين المتضادّين، فجَوّزَ أنْ يكونَ الحَزَوَّر الذي انتهى شبابه، أو الذي قارب الحُلُم، فهو ينزع نزْعًا ضعيفًا[10]، وقد ذهب الجوهريّ إلى أنّ المتعيّن مِن الحَزَوَّر البالغُ القويّ أيضًا، وهو مخالفُ في رأيه لابنِ الأنباريّ[11].

ومِن الكلمات التي تنتسبُ إلى هذه الظّاهرة "أسْرَرت"، فقدْ تكون بمعنى "كَتمتُ"، وهو الغالبُ، وقدْ تكون بمعنى "أظهرتُ"، ولمّا ورد بعض اللّغويّين والمفسِّرين على قوله: **"وَأَسَرّوا النّدامَةَ لَمّا رَأَوُا العَذابَ"[12]**، ترددّوا بين المعنيين، ولم يقفوا على أحدِهما إلاّ بالتّوهّم دون التّحكّمِ، فقيل إنّ معنى قولِه الشّريف أنّهم كتموا النّدامة، أو أظهروها عند مُعاينةِ العذاب محتجِّين للأخيرِ بقول الشّاعرِ:

وَلَمّا رَأى الحَجّاجُ جَرّد سَيفَه أسرّ الحروريُّ الذي كانَ أَضمَرا()

لعلّه يحسنُ أنْ أكتفيَ بما قدّمت مِن حديثٍ عن أثر المشترَكِ اللّفظيّ (والأضّداد ضربُ مِنه) في نشوءِ اللّبسِ، وسيأتي حديث في الدّراسةِ التّطبيقيّة حول هذا المرشّح.

3-وعلى صعيدٍ لفظيّ آخرَ، قد يحدث أنْ تكون **دلالةُ الكلمة عائمةً** تتّسع لمُدخَلات متنوّعةٍ، فيؤدّي هذا في بعضِ الأحيان إلى احتمالٍ وتباينٍ في فهم الدّلالةِ، ومِن ذلك:

---

(9) انظر: ابن الأنباري، الأضداد، 217، ويضيف صاحب اللسان أن من العرب من يجعل الحزور البالغ القوي البدن الذي حمل السلاح، والشعر للنابغة الذبياني، 42.

(10) انظر: ابن الأنباري، الأضداد، 218.

(11) انظر: الجوهري، الصحاح، مادة "ح ز ر"، وابن منظور، اللسان، مادة "ح ر ز".

(12) الآية (سبأ، 33).

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

1- "طوبى لِمَن مات في النّأنأة"

والنَّأنأة تدلّ على العجزِ والضّعف[13]، ولذلك احتمل قولُه أنّه أراد أوّل الإسلام قبل أنْ يقوى ويكثرَ أهلُه وناصره، أو أنّه أراد آخرَ الإسلام عند ضعفِ البصائرِ، وكثرة البِدع، والخلافِ[14].

ومِن مثلِ ما تقدّم دلالةُ "النّفي"؛ إذْ إنّها تدلّ على معنًى عامّ، وهو التّنحية، ولذلك يُقال: نَفَى شَعْر فلانٍ إذا ثار وذهب متساقِطًا[15]، ويَصْدق على التّنحيةِ الطّردُ، فكأنّه نفيٌ مِن سَعةِ الدّنيا إلى ضيقِها "السّجن"، ولمّا وردوا على قوله –تقدّس اسمه-: "أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأرضِ"**(16)** اختلفوا في النّفي مِن الأرض ما هو، فقال الفقهاءُ الحجازيّون: يُنفى مِن موضعٍ إلى موضع، وقال الفقهاءُ العراقيّون: يُسجَن ويُحبَس[17].

و"ردّ التّحيّة" ذو دلالةٍ عائمة مشترَكةٍ، فيجوز أنْ يكون المتعيَّن مِنها القبولَ بردّها كما هي، أو بأحسنَ مِنها، ويجوز أنْ يكون رفضَها وانتفاءَ قبولها، كقولنا: ردّه خائبًا، أو ردّ عليه قولَه، ولمّا ورد الفارسيّ على قول الشّاعرِ:

وَقَفْنا فَسلَّمْنا فَرَدّتْ تَحيّةً   عَلَيْنا وَلَمْ تَرْجِع جَوابَ المُخاطِبِ

أشكل عليه، فاحتمل عنده المعنيَين: معنى انتفاءِ القَبول، ومعنى ردّ الجوابِ[18].

---

(13) انظر: ابن السيد، الإنصاف، 46، وابن منظور، اللسان، مادة "نأنأ"، والحديث لأبي بكر رضي الله عنه.

(14) انظر: ابن السيد، الإنصاف، 46، والزمخشري، الفائق، 3/399، وابن الأثير، النهاية، 5/3، وقد ذهب صاحب اللسان إلى الوجه الأول.

(15) انظر: ابن منظور، اللسان، مادة "ن ف ى".

(**16**) الآية (المائدة، 33).

(17) انظر: ابن السيد، الإنصاف، 50-51، وعبد القادر السعدي، أثر الدلالة، 319-320، ولكلا القولين شاهد من اللغة.

(18) انظر: الفارسي، الشرح، 550، والشعر لذي الرمة في ديوانه، شرح أبي نصر الباهلي، تحقيق عبد القدوس أبو صالح، مؤسسة الإيمان، بيروت، 1982م، والمعنى عنده: لم تقبلها، 1/190.

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

وممّا دلالتُه عائمة محتمِلة تتّسع لمُدخَلاتٍ متقاربة "النّكاح"، فقد تدلّ على الوطءِ، وهو أصلُ النّكاح في كلام العربِ[19]، أو العَقْد، والمعنيان صالحان؛ ذلك أنّ العقدَ علّة مؤدّيةٌ إلى الوطءِ، وقد انبنى على هذه العموميّةِ الدّلاليّة تباينٌ في الفهمِ والحكم، والآياتُ التي وردتْ فيها كلمةُ النّكاح متعدّدة، ولذا استرعتْ اهتمامَ مَن يشتغلون بالفقهِ والأحكامِ، ومِن ذلك قولُه -عزّ مِن قائلٍ-:

"وَلا تَنكِحوا ما نَكَحَ آباؤُكُم مِنَ النِّساءِ إلاّ ما قَدْ سَلَفَ"[20]

في هذا السّياقِ الشّريف بيانُ حكم زواجِ الابنِ مِن منكوحةِ أبيه، وقد اختَلف الفقهاءُ في الحكم الفقهيِّ المتعيِّن مِنها، ومردّ ذلك إلى عموميّةِ الدّلالةِ واشتراكِها بين الوَطءِ والعَقد، فقدْ قال قسمُ مِنهم إنّها تَحْرم على الابنِ بوطءِ الأب إيّاها سواء أكان حلالاً أم حرامًا، ومِنهم مَن قال إنّها تحرم بعقدِ الأبِ عليها، أمّا إذا وطِئها حرامًا فلا تحرم[21].

وممّا ينتسبُ إلى المشترَكِ اللّفظيّ باب القول على:

4- المَجالات الدّلاليّة:

قيل إنّ رجلاً سأل أعرابيًّا فقال: أتهمز "إسرائيل"؟ فقال: إنّي إذًا لَرَجل سَوْءٍ، أراد: "هَمّازٍ مَشّاءٍ بِنَميمٍ"، فثنّى الرّجلُ: أتجرّ فلسطين؟ فقال: إنّي إذاً لَقويّ[22].

يظهرُ مِن هذه الحادثةِ الطّريفة –بقطعِ النّظرِ عن صحّتها- أنّ للهمز والجرّ مجالَين دِلاليَّين: أحدهما لغويّ، والآخرُ اصطلاحيّ نحويّ، والتّفاصلُ الواقعُ في هذه الحادثةِ آتٍ مِن انتساب هاتَين الكلمتَين إليهما، ولعلّ انتفاءَ معرفةِ الأعرابيّ بالحقل الاصطلاحيّ هو الذي أذِن بذلكم اللَّبسِ، فكانتْ قصّةً طريفةً مُبينة عن أثرِ هذا الموضعِ في تخلّق اللّبسِ.

ومِن مِثل ما تقدّم تنبيهُ السّيوطيّ على كلمةِ "الإعراب" في قوله -صلّى الله عليه وسلّم-: "مَن قرأ القرآنَ فأعربه كان له بكلّ حرفٍ عشرون حسنةً، ومَن قرأه بغير إعرابٍ كان له بكلّ حرفٍ عشر حسنات"، "فالمراد بالإعرابِ هنا معرفة معاني ألفاظِه، وليس المراد به الإعرابَ

---

(19) انظر: الأزهري، تهذيب اللغة، مادة "ن ك ح"، وابن منظور، اللسان، مادة "ن ك ح".

(20) الآية (النساء، 22).

(21) انظر: عبد القادر السعدي، أثر الدلالة، 325.

(22) انظر: الشريشي، شرح مقامات الحريري، وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م، 2/457.

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

المُصطلَحَ عليه عند النّحاةِ، وهو ما يقابل اللّحْنَ، لأنّ القراءة مع فقدِه ليست قراءةً، ولا ثوابَ فيها"[23].

والحاصلُ ممّا تقدّم أنّ المرءِ قدْ يَرِد عليه كلماتٌ محتمِلة لمعانٍ متعدّدة؛ ذلك أنّها تُنسَب إلى غيرِ مجالٍ دلاليٍّ، ولذا يعوزُه نظرٌ وتدبّر لتعيينِ المجال الدّلاليّ الذي إليه تنتسبُ الكلمة، وليس يخفى أنّ معانيَ الكلمة الواحدة(في الغالب) متّصلٌ بعضُها ببعض؛ ذلك أنّ مَلْمحًا جامعًا ينْبِئ عن المعنى العامّ، ولكنْ، يبقى لكلّ معنًى في مجالِه الدّلاليّ وسمٌ خاصّ، ومِن ذلك:

- "المتعدّي"، فهي في لغةِ القانون دالّةٌ على مَن يتعدّى على غيره، فيُعاقَب على فِعلتِه، وهي عند اللّغويّ دالّة على الفعلِ الذي يطلب مفعولاً.
- و"القَديم" في لغةِ أهلِ الفلسفة هو الله جلّ، ولا شيءَ يشركُه في هذه الصّفةِ، ويقابله الحادثُ بالذّات، والقديمُ لغةً تُطلَق على ما عتق وتطاول به الزّمان[24].
- و"النَّصْب" عند أهلِ القانون جُرم يُعاقَب عليه، وعند أهلِ اللّغةِ الفتحُ في الإعرابِ.
- و"الخبر" عند النّحويّ ليس كالخبرِ عند مَن يشتغلون في الصِّحافةِ.
- و"النَّحت" عند الصّرفيّ ليس كالنّحتِ عند أهل الفنونِ التّشكيليّة.

لنَرْجِع النّظرَ في الجملِ الآتية:

1. **لَنا في القَصْر رخصة.**
2. **استتار الفاعل لا يعني أنّه غير موجود.**
3. **يعجبني هذا التّصدير.**
4. **اعتلالُ العين يفضي إلى تغييرٍ في بِنيتها.**

يظهر مِن الجملةِ الأولى أنّ انتساب كلمةِ "القصر" إلى غيرِ مجال دِلاليّ يُؤْذِن بالولوج في الاحتمالِ؛ فقد تكون الجملةُ على لسان فقيهٍ، فيكون القصر هنا قصرَ الصّلاة واختزالَها اقتداءً بسنّة رسولِ الله -صلّى الله عليه وسلّم- عند حادثٍ ما، وتكون الرُّخصة بمعنى الإباحةِ والتّسهيل. وقدْ تكونُ الجملة هذه على لسانٍ لغويّ أو شاعرٍ يجنح إلى الضّرورةِ؛ فيُعوّل على قصرِ الممدود، ومِن ذلك "الصّحراء" و"السّماء"، فيطرِّح أواخرها المهموزة، وتكون الرّخصةُ هنا

---

[23] انظر: السيوطي، الإتقان، 2/382، ومن المؤلفات التي عنيت بهذا الجانب الآمدي(631)هـ، المبين في شرح ألفاظ الحكماء والمتكلمين، تحقيق عبد الأمير الأعسم، ط1، دار المناهل، بيروت، 1987م، والجرجاني(816هـ)، التعريفات، مكتبة لبنان، بيروت، 1985م.

[24] انظر: أبو البقاء الكفوي، الكليات: معجم في المصطلحات والفروق اللغويّة، تحقيق عدنان درويش، ومحمد المصري، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1993م، 727.

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

قريبةً مِن الأولى، والمعنى التّسهيل أو الضّرورة. وقدْ يقولها آخرُ فتنتسب الكلمةُ إلى المجال اللّغويّ، فيكون القصرُ هنا البناءَ المَشيدَ الممتاز عن غيرِه، وتكون الرّخصة الإجازةَ التي تؤهّل صاحبَها للسّياقة، أو التّملكِ، أو غير ذلك، وهكذا يظهر أنّ كلمة "القصر" تنتسبُ إلى مجالَين اصطلاحيّين، وهما الفقهُ والصّرف، وإلى آخرَ لغويّ.

أمّا الجملةُ الثّانية فقد يقولها نحويّ يذيع في طلاّبِه معلومةً مفادها أنّ الفاعلَ موجود لا يُحذَف، ولكنّه قدْ يستتر، ويبقى للتّقدير فضلُ بيانٍ للكشف عن المعنى، ومِن ذلك "جاء"، فالفاعلُ مستتِر تقديرُه هو. وقدْ تكون الجملةُ على لسان قاضٍ، أو محامٍ، أو مفتِّش، يبحثُ عن المجرمِ الهارب، فالفاعلُ في لغتِهم هو الذي اقترف جُرْمًا يعاقَب عليه، واستتارُه عن الأنظارِ والعيونِ لا يعني أنّه غير موجودٍ.

و"التّصدير" في الجملةِ الثّالثة ينتسب إلى غيرِ مجالٍ دِلاليٍّ، فقدْ تكون الجملةُ على لسان تاجرٍ يشغلُه أمر البيعِ، والشّراء، والاستيراد، والتّصدير، وقدْ تكون على لسانٍ بلاغيّ همُّه تنميقُ الكلام وتزيينه، والمتعيّن مِن مصطلحِه هو ردّ العجز على الصدّر، وهو أنْ يوافقَ آخرُ الفاصلة آخرَ كلمة في الصّدر؛ وذلك نحو: "وَالمَلائِكَةُ يَشهَدونَ، وَكَفى بِاللهِ شَهيدًا"[25].

والجملةُ الرّابعة محتمِلة احتمالَ ما تقدّمها، فقدْ تكون على لسانِ رجلٍ ممّن يشتغلون بالصّرفِ، فيكون "الاعتلال" دالاً على حرفِ العلّة، و"العَين" دالّةً على عينِ الفعلِ "ع"، و"البِنية" رسم الكلمةِ وجوهرُها. وقدْ تكون على لسانِ طبيبٍ واعظٍ، فالاعتلالُ عنده علامةُ المرض، والعين هي العين الحقيقيّةُ التي يُبصَر بها، و"بِنيتها" جسمُها وما تأتلف مِنه.

وقد ألمح ابنُ فارسٍ إلى التّردّد بين المعنيين في بابِ "الأسباب الإسلاميّة"، فأشار إلى كلمةِ "المؤمن" وأصلِها، فقد عرفت العربُ "المؤمن" مِن الأمانِ، ثمّ زادت الشّريعة شرائطَ وأوصافًا، وكذلك "السّجود"، فقد عَرَف العربُ السّجود، ولكنّه لم يكن على الهيئةِ المقرَّرةِ في الصّلاة، ولذا يُعَدّ كلام الشّاعر:

أوْ دُرّة صَدَفِيّة غَوّاصُها بَهِجٌ مَتى يَرَها يُهِلَّ وَيَسجُدِ

مُلبسًا؛ ذلك أنّ الخاطرَ قد يتوهّم أنّ سجودَه كالسّجود الشّرعيّ، وليس ذلك كذلك، وإنّما هو الانحناء والطّأطأة[26].

---

(25) الآية (النساء، 165)، وانظر: الكفوي، الكليات، 306.

(26) انظر: ابن فارس، الصاحبي، 79، والشعر للنابغة الذبياني، 40.

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

ومِن مثلِ ما تقدّم قوله -صلّى الله عليه وسلّم-: **"إذا دُعِي أحدكم إلى طعامٍ فليجبْ، فإنْ كان مفطرًا فليأكلْ، وإنْ كان صائمًا فليصلّ"**. وقد يقفزُ إلى النّفس خاطرٌ مؤدّاه أنّ الصّلاةَ هنا جاءت بمعناها الشّرعيّ، وهي العبادة المتعارَفُ على أركانِها، وأفعالِها، وهيئتها، ولكنّ لها معنًى آخرَ، وهو المعنى اللّغويّ الدالّ على الدّعاء، وقد حُمِل هذا القولُ على المعنى اللّغويِّ، والمتعيّن مِنه: لِيَدْعُ لأهلِه بالخير والبركة(27)، وقد جاءتِ "الصّلاة" في قولِ الشّاعر بالمعنى اللّغويّ:

تَقولُ بِنْتي وَقَدْ قرّبْت مُرْتَحَلاً   يا رَبِّ جَنِّبْ أبي الأَوْصابَ والوَجَعا

عَليكِ مِثل الذي صَلّيتِ فَاغتَمِضي   نَومًا فَإنّ لِجَنبِ المَرءِ مُضطَجعا

أي: عَليكِ مثل الذي دَعوت(28).

يُعرّف ابنُ الحاجب المفعولَ فيه بقوله:

"المفعولُ فيه هو ما فُعِل فيه فعْل مذكور مِن زمانٍ أو مكانٍ"، ثمّ يستدرك عليه الأستراباذيّ شارحًا قولَه: "فِعْل مذكور" لكي يدرأَ وهمُ قد يَرِد على النّفسِ مضمونُه أنّ الفعل في هذا السّياقِ هو قسيمُ الاسم والحرفِ، وليس ذلك كذلك، بل هو الحدثُ الذي تضمّنه الفعلُ المذكور(29).

وممّا ورد عليّ مِن لَبس آتٍ مِن المجالات الدّلاليّة أنّني كنتُ أحدّث طلاّبًا عن التّعالق المَكينِ بين المُسنَدِ والمسندِ إليه؛ ذلك أنّ أحدَهما لا يستغني عن الآخرِ، ولا تتمّ الفائدةُ إلاّ بهما، وكنتُ قد تمثّلت: "محمّد منطلق"، و"ينطلق محمّد"، فأشرتُ إلى أنّ القائلَ في الجملةِ الأولى أسند الانطلاقَ إلى محمّد، ولذا تمّت الفائدةُ، وتعيّن الخبر، وكذلك الجملة الثّانية، فعلاقةُ الإسناد فيها تُبِين عن المعنى والخبرِ المراد، فاستوقفني أحدُ الطلاّب قائلاً: لعلّك تريد الجملةَ الأولى؛ ذلك أنّها مؤتلفة مِن مبتدأ وخبرٍ، أمّا الثّانية فهي مؤتلفةٌ مِن فعلٍ وفاعل، فأدركت مرادَه، وبيّنت أنّ الخبرَ في سياقِ كلامِيَ المتقدّمِ لم يكنْ مصطلَحًا نحويًّا خالصًا، وإنّما قصدتُ الإخبار والإفادةَ.

5- اختلاف اللّهجات:

---

(27) انظر: الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، 285، والزمخشري، الفائق، 2/309، وابن الأثير، النهاية، 3/50.

(28) انظر: الزمخشري، الفائق، 1/309، والشعر للأعشى في ديوانه، 151.

(29) انظر: الأستراباذي، شرح الكافية، 2/11.

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

مِن المقرَّر المستحكِم أنّ العربيّةَ بناءُ ائتلافيٌّ ينتظم لهَجاتٍ متعدّدةً كانت تلتقي على قدر أساسيٍّ مشترَك في نظامِها الصّوتيّةِ، والصّرفيّةِ، والنّحويّة، والمعجميّة، ولكنّها كانت تفترقُ في مظاهرَ لغويّةٍ بذل اللّغويّون الوُسعَ كلَّه في حصرها عندما بدأ التّقعيد[30]، والحقّ أنّ مظاهرَ الافتراقِ كانت كثيرةً كثيرة، وأنّ مادّةَ التّقعيد اللّغويّةَ لم تقم على استرفادِ كلِّ المعطَيات اللّغويّةِ اللّهْجيّة؛ ذلك أنّ هذا مطلبُ متعذِّر مِن جهة، ومفارِق لقصدِ التّقعيد والبناء الائتلافيّ الجامعِ على مادّة لغويّةٍ مشترَكة مِن جهة أخرى، ولذلك اقتُصِر على قبائلَ مخصوصةٍ في رسمِ صورة العربيّة، "والذين عنهم نُقِلتِ اللّغة العربيّة، وبهم اقتُدِي، وعنهم أُخِذ اللّسان العربيّ مِن بين قبائل العرب هم قيس، وتميم، وأسَد، فإنّ هؤلاءِ هم الذين عنهم أكثر ما أُخِذ ومعظمه، وعليهم اتُّكِل في الغريبِ، وفي الإعرابِ، والتّصريف، ثمّ هُذيل، وبعض كنانة، وبعض الطّائيّين، ولم يُؤخَذ عن غيرِهم مِن سائرِ قبائلِهم"[31].

إخال أنّ اللغويّين معذورون في هذا الاقتصارِ لشيئَين: أوّلهما: لو أنّ لغويًّا معاصرًا أراد أنْ يُوصِّف اللّهَجاتِ العاميّةَ اليومَ لوجد في هذا المطلبِ عسرًا ومشقّة إنْ لم يجد عَجزًا، فإلى أيِّ لهجةٍ يفيء؟ وعلى أيّ مظهرٍ لغويّ يعتمد؟ أيقيم توصيفَه على لهجةِ المغرب العربيّ، أم على لهجةِ المشرق؟ وفي لهجةِ المشرق لهَجات متمايزةُ كلهجة السّودانِ، والأردنّ، والعراقِ، وفي العراق لهَجات متعدّدة تفترقُ في بعضِ ملاحظِها اللّغويّة؛ لعلّ هذا الذي تقدّم يُفضي إلى اقتباسِ نظرٍ مُعجِبٍ للمعريِّ مفادُه: "ولا يمكن أنْ يُحاطَ بجميعِ ما لفظتْ به القبائل،...، إذْ كان غايةً ليست بالمُدرَكة"[32]، وابن حزمٍ يقرّر أنّ مَن سمع لغةَ أهل "فَحْص البلّوط" -وهي على ليلةٍ واحدةٍ مِن قرطبة- كاد يقول إنّها لغةُ أخرى غير لغةِ أهلِ قرطبة، "وهكذا في كثيرٍ مِن البلاد، فإنّه بمجاورةِ أهلِ البلدة بأمّة أخرى يتبدّل لغتُها تبديلاً لا يخفى على مَن تأمّله"[33].

وثاني ذَيْنِكَ الشّيئَين أنّ للتّنزيل العزيزِ أثرًا جليًّا في هذه الوجهةِ التّقعيديّة المؤلِّفة، ومع هذا كلّه، فقد راعى الفروقَ اللّهْجيّة، وتعدّدتِ القراءاتُ القرآنيّة الشّريفة، "فالنّبيّ-صلّى الله عليه وسلّم- بُعِث إلى جميعِ الخلق أحمرِها وأسودها، عربيِّها وعجميّها، وكانت العربُ الذين نزل القرآن بلغتِهم لغاتُهم مختلفة، وألسنتُهم شتّى، ويعسر على أحدِهم الانتقالُ مِن لغتِه إلى

---

(30) انظر: نهاد الموسى، اللغة العربية، 19.

(31) انظر: السيوطي، المزهر، 1/211.

(32) انظر: المعري، عبث الوليد، تحقيق ناديا الدولة، دمشق، 1978م، 528.

(33) انظر: ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق الناشر، ط2، دار الحديث، القاهرة، 1992م، 1-34.

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

غيرها، أو مِن حرفٍ إلى آخرَ، بل قدْ يكون بعضُهم لا يقدر على ذلك، ولا بالتّعليم ولا العلاجِ، لا سيّما الشّيخ والمرأة ومَن لم يقرأ كتابًا،...، فلو كُلِّفوا العدولَ عن لغتِهم، والانتقال عن ألسنتِهم، لكان مِن التّكليف بما لا يُستطاع، وما عسى أنْ يتكلّف متكلِّفُ وتأبى الطّباع"[34].

أمّا مظاهرُ تباين اللَّهَجات فهو مطلبٌ يطول، ومِن أمثلتِه:

- لزوم الألفِ في المثنّى في الأحوالِ الثّلاثة: "جاء الولدان"، و"رأيت الولدان"، و"مررتُ بالولدان"[35].
- والتّردّد في إعرابِ الأسماءِ السّتّة بين ثلاثةِ وجوهٍ: أوّلها الرّفع بالواو، والنّصب بالألف، والجرّ بالياء، وثانيها "النّقص"، وهو حذفُ الواو والألف والياء، والإعراب بالحركاتِ الظّاهرةِ؛ وذلك نحو: هذا أبُه، ورأيت أبَه، ومررت بأبِه، وثالثها "التّمام"، وهو إلزامُها ألِفًا[36].
- والتّردّد بين إعمال "ما" كَـ"ليس" وإلغائها، والأوّلُ بلغة أهل الحجازِ، والثّاني بلغةِ بني تميمٍ[37].
- ومِن أمثلةِ التّباين اللّهْجيِّ كسرُ أوائلِ الأفعال المضارعةِ، "وذلك في لغةِ جميعِ العربِ إلاّ أهل الحجازِ، وذلك قولهم: أنت تِعْلم ذاك، وأنا إِعْلم، وهي تِعْلم، ونحن نِعلم ذاك"[38].

وفي بابِ القولِ على اختلافِ لغات العربِ يعرض ابنُ فارسٍ لهذه المسألةِ مِن وجوهٍ متباينة:

- كالاختلافِ في الحركاتِ، ومِنه نَسْتعين ونِسْتعين.
- والاختلاف في الحركةِ والسّكونِ، ومِنه: مَعَكم ومَعْكم.
- والاختلاف في إبدالِ الأصواتِ، ومِنه: أولئك، وأُلالِك.
- والاختلاف في الهمزِ والتّليينِ، والقلب، ومِنه: صاعِقة وصاقِعة.

---

(34) انظر: ابن الجزري، النشر، 1/22.

(35) انظر: ابن جني، الخصائص، 2/16، وابن عقيل، الشرح، 1/56، وابن مالك، شواهد التوضيح، 157، والسيوطي، الهمع، 1/134-135.

(36) انظر: ابن عقيل، الشرح، 1/48-49.

(37) انظر: سيبويه، الكتاب، 1/57، وابن جني، الخصائص، 2/12.

(38) انظر: سيبويه، الكتاب، 4/110، وتكسر الفاء في المثال والأجوف والناقص والمضاعف، انظر: ابن السراج، الأصول، 3/156، والأستراباذي، شرح الشافية، 1/141.

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

- والاختلاف في الحذفِ والإثباتِ، ومِنه: استحيَيْت واستحَيْت.
- والاختلاف في الإمالةِ.
- والاختلاف في التّذكير، والتّأنيثِ، والإدغام، والإعرابِ، وصورةِ الجمعِ، والزّيادةِ، ومِنه: "أنظور"[39].

ولا يُنسى في هذا المقام عَنْعَنة تميم، وكشكشةُ ربيعة، وكسكسةُ هوازن[40]، ولا يُنسى استعمال الألفاظ لدلالاتِها؛ ذلك أنّ القبائلَ كانت تتباين في بعضِ التّسميات التي تسبغُها على أشيائها، وبمُكْنةِ الدّارس أنْ يتّخذَ مِن التّباينِ اللّهْجي مَدْخلاً مِن مداخل دراسةِ ظواهرَ دلاليّة مخصوصةٍ؛ كالتّرادف، والمشترَك، والأضّدادِ، وابن جني يقرّر أنّه "إذا كَثُر على المعنى الواحد ألفاظٌ مختلفة، فسُمِعت في لغة إنسانٍ واحدٍ، فإنّ أحرى ذلك أنْ يكون قدْ أفاد أكثرَها، أو طرفًا مِنها، مِن حيثُ كانت القبيلةُ الواحدة لا تتواطَأ في المعنى الواحدِ على ذلك كلِّه، وكلّما كَثُرت الألفاظُ على المعنى الواحدِ كان ذلك أولى بأنْ تكون لغاتٍ لجماعاتٍ اجتمعت لإنسانٍ واحد"[41].

ويظهر أثرُ اللّهَجات في تخلّقِ الأضداد جليًّا في قولِ ابن الأنباريّ: "إذا وقع الحرفُ على معنيَين متضادّين فمحالٌ أنْ يكون العربيّ أوقعه عليهما بمساواةٍ مِنه بينَهما، ولكنّ أحدَ المعنيَين لحيٍّ مِن العربِ، والمعنى الآخرُ لحيٍّ غيره، ثمّ سَمِع بعضُهم لغةَ بعضٍ، فأخذ هؤلاءِ عن هؤلاءِ، وهؤلاءِ عن هؤلاء"[42]:

- "فالمُعْصِر" في لغةِ قيس وأسَد التي دنتْ مِن الحيضِ، وهي في لغةِ الأزْد التي ولدتْ أو تعنّستْ[43].
- و"المُقَوَّر" في لغةِ الهلاليّين السّمين، وفي لغةِ غيرهم المهزول.

---

(39) انظر: ابن فارس، الصاحبي، 50-54، والسيوطي، المزهر، 1/255.

(40) انظر: ابن جني، الخصائص، 2/13-14، وقد نسب ابن فارس الكشكشة إلى بنى أسد، انظر: الصاحبي، 56، ونسبها سيبويه إلى ناس من بني تيميم ومن أسد، انظر: الكتاب، 4/169، والسيوطي، المزهر، 1/221-223.

(41) انظر: ابن جني، الخصائص، 1/374-375.

(42) انظر: ابن الأنباري، الأضداد، 11، وقد تحدث Akmajian عن التنوعات اللغويّة "Language Variation" في الإنجليزية، فعرج على هيئة النطق وتنوعها بتنوع اللهجات، وعلى الكلمات ومعانيها المتنوعة بتنوع اللهجات، انظر:
Linguistics: An Introduction to Language and Communication, the MIT press, Massachusetts, 1979, P. 176-180.

(43) انظر: ابن الأنباري، الأضداد، 216.

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

- و"السّاجد" المنحني عند بعضِ العربِ، وهو في لغة طيِّىء المنتصِب[44].
- و"القَلْت" في كلامِ أهل الحجازِ نُقْرة في الجبلِ يجتمع فيها الماء، فيَغرق فيها الجمل لو سقط فيها، و"القَلْت" في لغةِ تميم وغيرهم نُقرة صغيرةٌ في الجبلِ يجتمع فيها الماء[45].
- و"اللَّمْق" عند بني عقيلٍ الكتابة، وعند سائرِ قيسٍ المَحْو[46].
- و"السّامِد" مِن الأضداد؛ إذ هي في كلام أهلِ اليمنِ اللاّهي، وفي كلامِ طيّىء الحزين، ولمّا وردوا على قوله –تبارك-: "وَتَضْحَكونَ وَلا تَبكونَ وَأنتُم سامِدونَ"[47] التبس عليهم الأمرُ، فتردّدوا بين المعنيَين الآتيَين مِن تباين اللّهَجات، فقيل إنّ المتعيّن: "وأنتم لاهون"، وقيل: "وأنتم حزينون متحيِّرون"[48].

أمّا المشترَك اللّفظيّ –والأضداد ضربُ مِنه– فأمثلتُه كثيرة، ومِن ذلك أنّ:
- "الألْفت" في كلام قيسٍ الأحمقُ، وفي كلام تميمٍ الأعسر.
- و"السَّليط" عند عامّةِ العربِ الزّيتُ، وعند أهلِ اليمن دُهن السّمسم[49].
- و"الرَّبّاد" هو الطّيّان بلغةِ اليمن[50].
- و"العِنْك" البابُ بلغتِهم أيضاً[51]، وعَنَك البابَ وأعنكه إذا أغلقه، وأعْنَك الرّجلُ إذا تَجِر في العُنوكِ، وهي الأبواب[52].

---

(44) انظر: ابن الأنباري، الأضداد، 294.

(45) انظر: ابن الأنباري، الأضداد، 421.

(46) انظر: ابن الأنباري، الأضداد، 35.

(47) الآية (النجم، 60-61).

(48) انظر: ابن الأنباري، الأضداد، 43-45، والزمخشري، الكشاف، 4/35، وأبو حيان، تحفة الأريب، 132، وقد ذهب ابن قتيبة وابن عزيز السجستاني ومكي بن أبي طالب إلى أن المعنى "الاهون"، انظر: تفسير غريب القرآن، 430، والنزهة، 271، ومكي، العمدة، 288.

(49) انظر: السيوطي، المزهر، 1/381.

(50) انظر: الزمخشري، الفائق، 2/128 وانظر: اللسان، مادة "ر ب د".

(51) انظر: الزمخشري، الفائق، 3/33.

(52) انظر: ابن منظور، اللسان، مادة "ع ن ك".

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

- و"التّفكّه" التّعجّب والتّندّم، مثل "التفكّنّ"، وهي لغةُ لعُكْل، وقد حُمل قوله –سبحانه-"فَظَلْتُم تَفَكَّهونَ"[53] على المعنيين، وهنا يظهرُ ثانيةً أثر التّباين اللّهْجي في تعدّدِ المعنى والاحتمال[54].

أحسبُ –بعد هذا العرضِ الدّالّ بالاقتضابِ– أنّ أجلى مرشّح لتخلّقِ اللَّبس الآتي مِن التّباين اللّهْجيِّ هو استعمال الألفاظِ لدلالاتِها؛ ذلك أنّ تواضَع قبيلتَين على معنيَين متباينَين لكلمةٍ واحدة ملحظُ يُفرز مواضعَ لَبس محتمِلةً، ولكنْ، قد يجدُ المرءُ علائقَ بين المعاني المتباينة بتباينِ اللّهَجات، ومِن ذلك السّليط الدّالّ على الزّيتِ ودُهن السّمسم كما تقدّم آنفاً، ولعلّ هذه العَلائقَ تعمل على تقريبِ المتعيِّن مع بقاءِ باب اللّبْس مفتوحًا.

وممّا ورد عليّ في هذا المضمارِ أنّ صديقًا مِن أفقٍ عربيّ قال لنا مرّةً: **"لقد أحضرتُ معي مِن السّودان فولاً طيّبًا"**، فوَهِمْت إذْ ظننتُ أنّه كالفولِ الذي نعهده ونأكلُه، وعجِبَ صديقٌ ثالث في الحضرةِ تلك مِن أنّ هذا الفولَ لم يتسنّهْ لطول الشّقّة والزّمنِ، ولكنّ هذا الوهم والعجبَ ظلاّ حبيسَي النّفْس، ولم نفصح عنهما إلاّ لمّا جاء بالفولِ الذي حدّثنا عنه، فإذا هو "الفُسْتُق" عندنا، فأعلنتُ ما أسررتُ في نفسي مِن وهمٍ، واستدرك عليَّ الثّالث بأنّ هذا الوهم باعثُه تباين لهْجيّ؛ إذْ إنّهم يسمّون "الفُستق" بالفول السّودانيّ.

ومِن مثل ما تقدّم أنّ صديقًا عُمانيًّا زارني فسألتُه عن ثالثٍ لنا، فقال: **"تركتُه مهتمًّا، عنده امتحان شامل"**، فقلت له: هذا هاجسٌ حميد يستنهضُ الهمّة، فأنغض رأسَه مستنكِرًا عليّ هذا المذهبَ قائلاً: وكيف يكونُ "الهمّ" عاملاً مِن عواملِ النّجاحِ؟ فقلت: بونٌ عظيم بين الهمّ والاهتمامِ، فأدرك ساعتَها أنّني لم أقتنصْ مرادَه، وأنّنا نلتقي على معنًى واحدٍ، ولكنّ الذي شتّت الخواطرَ، وأقام التّفاصلَ، التّباينُ اللّهْجيّ؛ ذلك أنّ "المُهتمّ" عند أهلِ عُمان تدلّ على المهمومِ عندنا، وليس يخفى أنّ استعمالَهم لهذا الوجهِ صالح؛ ذلك أنّ القالَبَ الذي أودِعتْ فيه تلكم الكلمة هو "افتعل"، وهو في إحدى وجهاتِه دالٌّ على معنى الإضافةِ والاكتساب، فاهتمّ: إذا اكتسب نصيبًا مِن الهمّ.

---

(53) الآية (الواقعة، 65).

(54) ذكر المعنيين: ابن قتيبة، تفسير غريب القرآن، 45، وابن عزيز، النزهة، 172، والزمخشري، الكشاف، 4/57، وأبو حيان، البحر، 8/211، وذكر أن "تفكّه" من أخوات "تأثم"، والمعنى: تطرحون الفكاهة عن أنفسكم.

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

وممّا حُدِّثت به وأنا أستشرفُ وقائعَ كلاميّةً ملبِسة في هذا البابِ كلمة "البِطّيخ"؛ ذلك أنّها "الشّمّام" عند أهلِ الإمارات، والعراق، والمغرب العربيّ، ولمّا خُيِّر الأوّلُ بين فواكهَ متنوّعة آثر البِطّيخ، فجاء صاحبُه بالبِطّيخ الذي تعارف عليه أهلُ البيئةِ الكلاميّة التي ينتسب إليها، وبعد أنْ فرغا مِنه أوحى الأوّل إلى صديقِه أنْ ليس هذا الذي عنى؛ ذلك أنّ البيئةَ الكلاميّة التي ينتسب إليها تتباينُ في إسقاطِ دلالةٍ أخرى للكلمة نفسِها عن بيئةِ الآخر، وبذا تصبحُ كلمة "البِطّيخ" مشتركًا لفظيًّا باعثُه التّباين اللّهْجي.

والحقّ أنّ أمثلةَ هذا المطلب كثيرةٌ كثيرة، والذي أودّ التّنبيه عليه أنّ كثيرًا مِن مظاهرِ اللّبس الآتي مِن هذه الجهةِ على التّعيين يمَّحي بالمعرفة المكتَسَبة، والتَّطواف في الآفاقِ العربيّة، والمُجاوَرَة؛ ذلك أنّ الرّصيد المعجميّ يتوسّع بهذا التَّطواف، وقد تنبّه ابن جنّي إلى هذا الملحظِ؛ ملحظِ التّواصل مع تجلّي التّباين اللّهجيّ، فقال: "فقد علمتَ بهذا أنّ صاحبَ لغةٍ قد راعى لغةَ غيره؛ وذلك لأنّ العربَ وإن كانوا منتشرين، وخلقًا عظيمًا في أرضِ الله غير متحجّرين ولا متضاغطين، فإنّهم بتجاورِهم وتزاورِهم يَجرون مَجرى الجماعة في دار واحدةٍ، فبعضهم يلاحظُ صاحبَه، ويراعي أمر لغتِه، كما يراعي ذلك مِن مُهِمِّ أمره، فهذا هذا"[55].

6- التّطوّر الدّلاليّ:

التّطوّر ناموسٌ نافذُ الفعل في الكونِ، يتجلّى في معالمَ متباينةٍ، ومِنها اللّغة؛ ذلك أنّها ظاهرة اجتماعيّةٌ غير معزولةٍ عن المجتمع وما يُستعملُ فيه، أو يتوارى عنه، أو يضعف، ثمّ إنّها وسيلةُ التّفكير وأداته، والفكرُ في حركة دائبةٍ متوثِّبة متطوِّرة، وما ينسحبُ على الفكرِ ينسحب على اللّغة؛ إنّها عرضة للتّطوّر والتّغيّرِ الحادثِ في مستوياتِها الصّوتيّةِ، والصّرفيّةِ، والنّحويّةِ، والمعجميّة، والأسلوبيّة، والذي يخصّ هذه المباحثةَ هو التّطوّر الواقعُ في الدّلالةِ، والنّاظر في المعجماتِ العربيّة يجد تراخيًا جليًّا بين كثيرٍ مِن الألفاظِ ودلالاتِها، ولا يُنسى أنّ كثيرًا مِن ألفاظ العربيّة المعمَّرةِ متداولة، ومِن شأن هذا أنْ يُعْقِب التباسًا؛ ذلك أنّ اللاّحق في كثيرٍ مِن الأحيان يفهمُ ألفاظ السّابق كما يفهمُها في عصرِه ظانًّا أنّ تلكم الألفاظَ المتقادِمةَ كانت تعني عند السّابقِ ما تعنيه عنده[56]، "ولو قمنا بمقارنةٍ كاملةٍ بين فترتَين متباعدتَين لتكشّف لنا الأمرُ عن اختلافاتٍ عميقة كثيرةٍ مِن شأنها أنْ تعوّق فهمَ المرحلة السّابقةِ، وإدراكَها إدراكًا تامّاً، فممّا لا شكّ فيه أنّنا في حاجةٍ إلى استعدادٍ لغويّ خاصّ كي نتمكّنَ مِن فهم الملحمةِ

([55]) انظر: ابن جني، الخصائص، 2/17-18.

([56]) انظر: مهدي عرار، جدل اللفظ والمعنى، 184.

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

الإنجليزيّة القديمة "Beowulf" مثلاً، أَوْ أَنْ نتذوّقَ أساليب النّثر في عهد الملكِ ألفريد "King Al fred"[57].

لنا أنْ نسرّح الخاطرَ متخيّلين أنّ امرأَ القيسِ "السّابق" بُعِث حيًّا من قبره بمشيئةِ الله القديرِ، وأنّه بدأ يتجوّلُ في أسواقِ اللاّحق بزيّه العربيِّ التّقليديّ وقد نفض عن جبينِه رمالَ الصّحراءِ، أحسبُ أنّ نصيبَه معنا مِن التّواصل خافت؛ ذلك أنّ كثيرًا مِن الألفاظِ الحادثةِ لا عهدَ له بِها، كالحاسوب، والهاتف، والتّلفاز، والمذياع، وأنّ كثيرًا من ألفاظِ عصرِه استوتْ اليومَ في ملامحَ دلاليّةٍ مفترقةٍ عن ملامحِها الأولى افتراقًا يسيرًا أو خطيرًا، ولا يُنسى أنّه سيفتقد كثيرًا مِن ألفاظِ عصرِه التي طواها الزّمن، سيفتقد ناقتَه وصفاتِها، وسيفَه وأوصافه، والملامحَ الدّلاليّة المميِّزة لكلّ وصفٍ، والخمرة وأشكالَها، وأنواعَ الرّياح التي كان يقيم فروقًا دلاليّة بين ألفاظِها، وحصانَه والأوصافَ الدّقيقة التي كان يُسبغها عليه، وفوق هذا كلّه سيجدُ نفسه غريبًا في عالم البنطالِ والقميص.

وأحسبُ أنّ الباحثَ غيرُ مبالغٍ لو قال: والأمرُ عند اللاّحقِ كما هو عند السّابقِ "امرئ القيس"، فإذا ما أُرْجِع إلى القرونِ الأولى فإنّه سيلاقي عَنَتًا ومشقّة في التّواصلِ، بل ستُفضي به تلك المشقّة إلى أبوابِ اللّبسِ؛ ذلك أنّه سينقّر عن معاني ألفاظِ السّابقِ في المُعجماتِ، وقد يتعذّر عليه إدراكُها كإدراكِ السّابق، وسيجدُ أنّ كثيرًا مِن المدلولاتِ قدْ تطوّرتْ مع بقاءِ رسمِها على ما هو عليه كالبريدِ، وريشةِ الكتابةِ، والدّبابةِ، ولا يُنسى امّحاءُ الفروقِ الدّلاليّة المميِّزةِ التي كان يقيمها السّابق: كالفرقِ بين القُعود والجلوس، والظّلّ والفيءِ، والقَضيم والكَهامِ، وغير ذلك كثيرٌ كثيرٌ.

حقّاً أنّها مشكلةٌ لغويّة تُفضي باللاّحقِ إلى الولوجِ في عالمِ اللّبس مِن بوّابةٍ عريضة:

- مِن امّحاءِ الفروقِ الدّلاليّةِ.
- ومِن انزياح الألفاظِ عن دلالاتِها إلى حدّ الإيهامِ دون الإحكام.
- ومِن انتفاءِ مقدرتِه على إقامةِ بونٍ بين المُطْلَق والمُقيَّدِ.

وعندها ستصبح النّاقةُ وصفاتها المتباينة المتنوّعةُ "ناقةً" واحدةً عند اللاّحق، وهي عند السّابقِ أشكالٌ، وألوان، وأنواع، وستغدو أنواعُ السّيوف وصفاتُها سيفًا واحدًا، كما ستصبح جميعُ أنواع السّياراتِ المتباينة التي يراها امرؤ القيسِ سيّارةً واحدة؛ ذلك أنّها ممّا يقع خارجَ وعيِه ومفهومِه، فقد يصعب عليه أنْ يدرك أنّ هذه مِن طراز "مرسيدس"، وأنّ تلك مِن طراز "فولفو".

---

(57) انظر: أولمان، دور الكلمة، 170.

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

لِنَرْجِع النّظر في الأمثلةِ الآتيةِ لتجلية انزياحِ الألفاظ عن دلالاتِها، وما يعقب هذا الانزياحَ مِن لَبسٍ في إدراك مقاصدِ السّابق:

1-جَهَش للبكاء وأجْهَشَ:

ثمّ بونٌ بين الدّلالة القديمةِ ودلالة اليوم؛ فالمتعيّن مِنها قديمًا هو الاستعدادُ للبكاء والاستعبارِ، والجَهْش أنْ يفزع الإنسان إلى غيرِه، وهو مع ذلك كأنّه يريدُ البكاء كالصّبيّ يفزع إلى أمّه وأبيه وقدْ تهيّأ للبكاء[58]، والحقّ أنّ هذا المعنى مفارقٌ لِما ران عليه إلفُنا في استعمالِ اليوم؛ ذلك أنّ "أجهش" تدلّ في هذه الأيامِ على أنّه أغرق في البكاءِ وأطال إلى حدّ النّحيبِ، وأحسبُ أنّ التّجافيَ عن أخذ التّطوّرِ الدّلاليّ بعين العنايةِ، وملاحظةِ أطوارِ الدّلالة المتعاقبة، أمرٌ يفضي إلى اللّبسِ، وإلى فهم ألفاظِ السّابق فهمًا مغايرًا للقصدِ الأوّلِ، ولمّا عرّج الثّعالبيُّ على فصلِ ترتيب البكاءِ بيَّن موضعَ هذه الكلمةِ في حقلها الدّلاليّ بين أخواتِها، فقال: "إذا تهيّأ الرّجل للبكاءِ قيل: أجهش، فإنْ امتلأت عيناه دموعًا قيل: اغرورقتْ عينُه وترقرقتْ، فإذا سالتْ قيل: دَمَعتْ وهَمَعت، فإذا كان لبكائِه صوتٌ قيل: نَحب ونشج، فإذا صاح مع بكائِه قيل: أعول"[59]. يظهرُ ممّا تقدّم بجلاء ملحظان:

- أوّلُهما ما تقدّم عليه الحديثُ، وهو أنّ دِلالة "أجهش" اليومَ مفارقةٌ لدلالتها أمسِ.
- وثانيهما أنّ موضعَ الكلمةِ في الحقلِ الدّلاليّ بين أخواتِها مطلبٌ له خطرُه في تعيينِ معناها، وملاحظةِ امتيازِها عن بنات حقلِها.

2- المَأْتَم:

عَودًا ثانيًا على خطورةِ فهم ألفاظ السّابقِ كما يفهمها اللاّحق، فالمَأْتَم اليومَ يكاد يقترنُ بالمصيبةِ والمناحة، وقد شكا مِن ذيوعِ هذا المعنى الحادث ابنُ قتيبةَ، فخطّأ مَن يقول إنّ دلالةَ المَأْتَم تقترن بالمصيبة، وإنّما "المأتم" النّساءُ يجتمعن في الخيرِ والشّرّ"[60]، واستدرك عليه ابنُ السِّيدِ قائلاً: "إنّ المأتم يكونُ مِن الرّجال أيضًا"[61]. والمُستصفى ممّا تقدّم أنّ دلالةَ المأتم قديمًا لم تقترن بالشّرّ والنّساءِ فقط، بل اقترنتْ بالخيرِ، والشّرّ، والنّساءِ، والرّجالِ، ولعلّ هذا يُفسَّر بأنّ الأصلَ الدّلاليّ العريضَ هو الاجتماعُ والانضمام، ونظرُ ابنِ فارسٍ في

(58) انظر: ابن منظور، اللسان، مادة "ج هـ ش".

(59) انظر: الثعالبي، فقه اللغة وسر العربية، 125.

(60) انظر: ابن قتيبة، أدب الكاتب، 26.

(61) انظر: ابن السيد، الاقتضاب، 2/15.

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

مقاييسِه يعضدُ هذا، فقد ذهب إلى أنّ الهمزةَ والتّاء والميم أصلُ يدلّ على انضمامِ الشّيء بعضه إلى بعض[62]، ولو أنّه ورد على اللاّحق قولُ الشّاعر:

رَمَتْه أناةٌ مِنْ رَبيعةَ عامِرٍ   نؤومُ الضّحى في مأتَمٍ أيّ مَأتَمِ[]

لكان هذا الموضعُ مرشّحاً للولوج في مزالقِ اللّبسِ الآتي مِن التّطوّر الدّلاليّ؛ ذلك أنّ مأتم اللاّحقِ ليس كمأتمِ السّابق، فهو في هذا البيتِ اجتماعُ النّساء لا محالةَ في مقامِ فرح، وليس خطأً أنْ يُقال إنّ المأتمَ هو المصيبة في هذه الأيّامِ، لأنّ النّساء اجتمعن لذلك، والحزنُ هو السّببُ الجامع[63].

3- الدّابّة:

والدّابّةُ تكاد تكون مقتصرَةً في يومِنا هذا على بعضِ الحيواناتِ التي تدبّ على الأرضِ، ولكنّها قبْلاً اسمُ لِما دبّ على الأرضِ، وقدْ جاء في التّنزيلِ العزيز: "وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دابّةٍ مِنْ ماءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشي عَلى بَطْنِه"[64].

يظهر مِن هذا السّياق الشّريفِ أنّ دلالةَ الدّابّة عامّة مفتوحةٌ على ما يَعقل وعلى ما لا يعقلُ، وسببُ ذلك قوله -تنزّه-: "فمِنهم"، والمرادُ: واللهُ خلق كلّ نفس دابّةٍ، ومثلُه قولُه -تنزّه-: "ما تَرَكَ عَلى ظَهرِها مِنْ دابّةٍ"[65]، وقد قيل: مِن دابّةٍ مِن الإنسِ، والجنّ، وكلّ ما يعقل[66].

لعلّ في هذا العرضِ بيانًا مجلّيًا للفرق الحادثِ بين دابّة السّابقِ ودابّةِ اللاّحق، وليس يخفى أنّ إطلاقَ هذا الوسمِ على أحدٍ ما يُعَدّ إهانةً وازدراءً في يومِنا هذا، وقد ألمح صاحبُ اللّسان إلى التّطوّر الدّلاليّ الواقعِ في هذه الدّلالةِ، فأشار إلى أنّ الدّابّةَ هي التي تُرْكَب، وأنّ هذا الاسمَ غَلَب على ما يُرْكّب مِن الدّوابّ، وحقيقتُه الصّفة[67]، وليس يخفى أنّ هذا التّطوّر الدّلاليَّ تخصيصُ لدِلالةِ الكلمةِ، واطّراحُ بعض ما تستغرقُه دلالتُها، ويبقى المعوّلُ عليه في

---

(62) انظر: ابن فارس، المقاييس، مادة "أ ت م".

(63) انظر: ابن منظور، اللسان، مادة "أ ت م".

(64) الآية (النور، 45).

(65) الآية (فاطر، 45).

(66) انظر: ابن منظور، اللسان، مادة "د ب ب".

(67) انظر: ابن منظور، اللسان، مادة "د ب ب".

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

رفع اللّبسِ، واقتناصِ مقاصدِ التّعبير، استشرافَ أطوارِ الدّلالةِ المتراكمة كتراكمِ الطّبقات الأثريّة.

4- الطّرَب:

الطّرب في دلالتِه القديمةِ واقعٌ في الفرح والحزنِ؛ إذ إنّه خِفّةٌ تعتري المرء عند الشّدّةِ؛ شدّة الفرحِ أو الحزن، ولكنّ هذه الدّلالةَ تطوّرتْ فغدتْ تدلّ على الخفّة التي تعتري المرءَ في حالِ الفرحِ فقط، وقدْ شكا مِن هذا التّطوّر ابن قتيبةَ، فخطّأ مَن يجعلُه في الفرحِ دون الجزع[68] ، ولعلّ اطّراحَ "الجزع" مِن دائرةِ دلالة "الطّرب" تخصيصُ دلاليّ، واقتصارُ على ملمحٍ معنويٍّ وهو الفرحُ، والظّاهرُ أنّ على المرءِ أنْ يتنبّه إلى هذَين المعنيين: المتقادِم والحادثِ حتّى لا يقع في لَبس، فيتجافى تجافيًا غيرَ مقصودٍ عن فهم كلام السّابقِ، وممّا جاء بالمعنى المتقادِم:

سَأَلَتْني جارَتي عَنْ أمَّتي ... وَإذا ما عَيّ ذو اللّبِّ سَأَلْ

سَأَلَتْني عَن أُناسٍ هَلَكوا ... شَربَ الدّهرُ عَلَيهِمْ وَأكَلْ

وَأراني طَرِبًا في إِثْرِهِمْ ... طرَبَ الوالِهِ أوْ كَالمُخْتَبَل()

5- الرّضْخ:

للرّضخ معانٍ متنوّعةٌ، ومِنها كسرُ الرّأس، وكسرُ النّوى، فيقال: رضختُ رأسَ الحيّة بالحجارةِ، وهذا معنًى ما يزال قائمًا في أذهانِنا، وينضافُ إلى معانيها العطاءُ، فيُقال: رضخ له مِن مالِه إذا أعطاه، والرّضيخة العطيّةُ، وراضخَ فلانٌ شيئًا إذا أعطى وهو كارهٌ.

يظهر أنّ المعنى الأخيرَ، وهو العطاءُ، غير شائعٍ في عُرفنا اللّغويّ اليومَ، فالنّاس يتعارفون على أنّ معنى "الرّضخ" الكسرُ أو الدّقّ، وقد تدلّ أيضًا على الإذعانِ والانقيادِ، فيُقال: رَضَخ فلان لفلانٍ، إذا استجاب له وأذعن، والحاصلُ أنّ تطوّر هذه الدّلالةِ مرشّح لتخلّقِ اللّبسِ، ومِن ذلك قولُ ابن قتيبةَ: "فإذا حضرها الأقارب واليتامى والمساكين فارضخوا لهم وعدوهم"[69]. وقدْ كنتُ قدْ عرضتُ هذا النّصّ على ثلّةٍ مِن طلاّب العربيّةِ الشّادين، فجنحوا كلّهم إلى أنّ المتعيّن مِنها هو ما ران عليه إلفُنا اللّغويّ اليومَ، وهو الإذعانُ والانقياد، وليس ذلك كذلك في هذا السّياقِ المتقادِم، بل المعنى: أعطُوهم شيئًا قليلاً[70].

---

(68) انظر: ابن قتيبة، أدب الكاتب، 24.

(69) انظر: ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، 321.

(70) انظر معنى الرضخ: ابن فارس، المقاييس، مادة "ر ض خ"، وابن منظور، اللسان، مادة "ر ض خ".

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

6-التّعزير:

وهـذه كلمةٌ مِـن الأضـداد[71]، فـيقال عـزّره إذا ردّه، والتّعزيـرُ ضـرب دون الحـدِّ لمنعِه الجانـيَ مِن المعاودة، وردعِه عن المعصيةِ، وقيل هـو أشـدّ الضّربِ، وثَمّ معنًى آخرُ يقابل ما تقدّم، وهو التّوقيرُ والنّصر، وأصلُ ذلك كلّه المنعُ والرّدّ، "فكأنّ مَن نصرتَه قد رددتَ عنه أعداءه، ومنعتَهم مِن أذاه"[72]. أمّا دلالتها اليومَ فهي مفترِقةٌ عمّا تقدّم افتراقًا يسيرًا؛ ذلك أنّها في عُرفنا اللّغويّ لا تشيعُ إلاّ بمعنى التّأديب، ولعلّه يستقيمُ أنْ يُقال إنّ دلالة "التّعزير" مرّت بأطوارٍ متعاقبة: أوّلها دلالةُ الأصل على معنًى عامّ، وهو المنعُ، والمنعُ يقع بالتّأديبِ، ويقع بالتّوقيرِ والنّصر، ثمّ مرّتْ هذه الدّلالةُ بطورٍ آخرَ جديد لنا إلفُ به، وهو التّأديبُ، والحاصل أنّ هذا الطّورَ الأخير اقتصر على ملمح دلاليّ واحدٍ، واطّرح الآخر؛ فهو تضييقٌ لدائرةِ المعنى التي تتربّع عليها هـذه الكلمةُ، وقدْ وردتْ فـي التّنزيـل العزيـزِ بـالمعنى المتقادم: "لِتُعَزِّروهُ وَتُوَقِّروهُ"[73].

7- الشّنْق:

لهذه الكلمةِ في هذه الأيّام معنًى ليس لها مِن قبلُ؛ فقد كان يُقال: شَنَق البعير شَنْقًا إذا جَذَب خطامه وكفّه بزمامِه مِن قِبَلِ رأسه، وأَشْنَق البعيرُ بنفسِه إذا رفع رأسه، والشِّناق حبلٌ يُجْذَب به رأس البعيرِ والنّاقة، وشَنَق رأسَ الدّابّةِ: شدّه إلى أعلى شجرةٍ أو وَتِدٍ مرتفع حتّى يمتدّ عنقها وينتصب[74]، والمُستصفى ممّا تقدّم أنّ تطوّر هذه الدّلالةِ، وانتقالَها مِن مجال إلى مجالٍ لعلاقة المشابهة، أمران يجب التّنبيه عليهما، وليس يصحّ في الفهمِ أنْ يُحْمَل معنى قولِه: "شَنَق دابّته"، أو "شَنَق رأس حصانِه" على مَحمِلِ المعنى الذي نتداوله اليومَ؛ إذ إنّ مقاصدَ التّعبيرَين متباينة، مع وجودِ مَلمَح جامعٍ.

8- سائر:

"السُّؤْر" بقيّة الشّيء، والسّائر الباقي، ولكنّها تطوّرتْ فأصبحتْ تدلّ على الجميع، والجوهريّ يقرّر المعنى الأخير[75]، ولكنّ بعضَ اللّغويّين يَرَون هذا المعنى متجافيًا عن السّلامةِ

([71]) انظر: ابن الأنباري، الأضداد، 147.

([72]) انظر: ابن منظور، اللسان، مادة "ع ز ر".

([73]) الآية (الفتح، 9).

([74]) انظر: ابن منظور، اللسان، مادة "ش ن ق".

([75]) انظر: الجوهري، الصحاح، مادة "س أ ر"، والسيوطي، المزهر، 1/136.

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

اللّغويّةِ؛ ذلك أنّه ممّا تغلط فيه العامّة[76]، والحاصل أنّ ورودَ اللّبس على المرء حاصلٌ إذا ماعَرَض له: "جاء سائر الطّلاب"؛ إذْ إنّ لهذه الكلمة طورَين دِلاليّين، فقد يتشبّثُ المرسلُ بطورٍ، ويتشبّث المتلقّي في الحدثِ الكلاميّ نفسِه بطورٍ دلاليٍّ آخرَ، فيحدث اللّبس الآتي مِن التّطوّرِ الدّلاليّ.

ومِن مثل ما تقدّم التّطوّر الحادثُ في دلالة "الشّجْب"، و"المِشوار"، و"الضَّيْعة"، و"الوغد"، والحقّ أنّ هذا يكثُرُ إنْ تتبّعتُه، وقد أوردتُ أمثلة تنبّهُ على الغرض الذي قصدتُه.

وعلى صعيدٍ لفظيّ آخرَ، قد يحدث تطوّرٌ في طبيعةِ المدلول وهيئتِه، والحاصل أنّ هذا التّطوّر مَجْلَبَةٌ للّبس في مواضعَ لانتفاءِ فهم النّصّ على حقيقتِه، فبندقيّة السّابقِ لم تعد كبندقيّة اللاّحقِ؛ إذ إنّها لم تعدْ سلاحًا حجريًّا، وريشةُ الكتابة لم تعد ريشةَ طيرٍ، والورقة لم تعدْ ورقةَ برديّ، وغير ذلك كثيرٌ[77].

لننظرْ فيما يأتي:

9- التُّحْفة:

تدلّ هذه الكلمةُ قديمًا على الطُّرفة مِن الفاكهةِ وغيرِها مِن الرّياحين، وهي أيضًا ما أتْحفتَ به الرّجل مِن البرّ واللّطف[78]، وفي بابِ الأطعمةِ والأشربة يقرّر الثّعالبيّ أنّ طعامَ الضّيف القِرى، وطعامَ الدّعوة المَأْدُبة، وطعام الزّائر التّحفة[79]، ولكنّ هذه الدّلالةَ المتقادِمة لا تشيعُ عندنا اليومَ البتّة، بل تكاد تكونُ مطويّةً في بطونِ المعجمات، والشّائعُ عندنا أنّ دلالةَ التّحفةِ ترتبط بما يُستخرَج مِن معامي الأرضِ مِن الآثار، أو بالشّيءِ المستطرَف الذي يوضَع للزّينة.

10- البريد:

بَونٌ بين المعنيين كبيرٌ، واللّبسُ المحتمِل آتٍ مِن تطوّر المرجعِ وافتراقِه عمّا كان عليه؛ ذلك أنّ البريد قديمًا الرّسلُ على دوابّ البريدِ، وقد قيل: الحُمّى بريدُ الموت، أي رسول الموت

---

(76) انظر: الزمخشري، الفائق، 1/41، وابن الأثير، النهاية، 2/327، والأزهري، تهذيب اللغة، مادة "س أ ر"، وابن منظور، اللسان، مادة "س أ ر".

(77) انظر: بيير جيرو، علم الدلالة، 114.

(78) انظر: ابن منظور، اللسان، مادة "ت ح ف".

(79) انظر: الثعالبي، فقه اللغة وسر العربية، 264.

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

تُنذِر به، وقيل لدابّة البريدِ: بريد، والبريدُ كلمة فارسيّةٌ أصلها "بريده دم"، أي: محذوف الذّنب؛ "لأنّ بغالَ البريد كانتْ محذوفةَ الأذناب كالعلامةِ لها"[80].

وعلى صعيد دلاليٍّ آخرَ قد يحدثُ أنْ تمّحيَ فروق دلاليّة بين كلمتَين أو أكثر، فيحدث تطابقٌ بين دائرتي الدّلالتَين، واللّبسُ في هذا الموضعِ آتٍ من امّحاءِ الفروق الدّلاليّةِ التي كان السّابق يقيمها، ولكنّ اللاّحقَ لا يقيم تلك الفروقَ، ولعلّ نزْرًا يسيرًا مِن المتخصِّصين هم القوّامون على هذا المطلبِ، ومِن ذلك:

1- الجَبهة والجَبين:

لا يكاد اللاّحقُ يَفْرُق بينهما، وقد شكا مِن هذا التّطوّرِ الدّلاليّ ابن قتيبةَ جانحًا إلى عدّه مِن الخطأ[81]، فالجبهةُ مسجِدُ الرّجل عند السّجودِ، وقيل هي مستوى ما بين الحاجبَين إلى النّاصية، والجبينُ فوق الصّدغ، وهما جبينان؛ واحدٌ عن يمينِ الجبهة، وآخرُ عن شمالِها[82].

2- الصّراخ والصّياح:

يقرّر الثّعالبيّ أنّ ثَمّ بَونًا بينهما، فالصّياحُ صوت كلِّ شيءٍ إذا اشتدّ، والصّراخ الصّيحةُ الشّديدة عند الفزعة، أو المصيبة[83]، وأحسبُ أنّ هذا البونَ الدّلاليّ المقرَّرَ قد اطُّرِح وامّحى، فلم يبق منه إلاّ الرّسْمُ الكتابيّ، واللّبْس آتٍ مِن تناسي هذا الفرقِ وانتفاء تحققِّه عند اللاّحق.

3- الظّلّ والفَيء:

الظّلّ يكونُ غدوةً وعشيّة، ومِن أوّل النّهار إلى آخرِه، ومعناه السّتْر، ولذلك يقالُ: أنا في ظلّك، أي في سترِك وحمايتِك، والفَيء مفترقٌ في دلالتِه عن الظّلّ؛ ذلك أنّه لا يكون إلاّ بعد الزّوالِ، ولا "يُقال لِما قبل الزّوال فيءُ، وإنّما سُمّي بالعشيّ فيئًا لأنّه ظِلُّ فاء عن جانبٍ إلى

---

(80) انظر: ابن منظور، اللسان، مادة "ب ر د".

(81) انظر: ابن قتيبة، أدب الكاتب، 30.

(82) انظر: ابن قتيبة، أدب الكاتب، 36.

(83) انظر: الثعالبي، فقه اللغة وسر العربية، 214، وقد ذكر هذا البون الدلالي صاحب اللسان، انظر: مادة "ص ي ح"، ومادة "ص ر خ".

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

جانبٍ، أي رجع عن جانبِ المغرب إلى جانب المشرِقِ، والفَيءُ هو الرّجوع"[84]، واللاّحق لا يقيم بَونًا بين المعنَيين.

4- القعود والجلوس:

ومِن مثل ما تقدّم امّحاءُ البونِ الدّلاليّ بين القعود والجلوسِ، وقد خطّأ الحريريّ مَن يجعلهما بمعنًى واحدٍ، وإخال أنّ هذه التّخطئةَ برهان مشرقُ الدّلالةِ على التّطوّر الحادث فيها، فالاختيارُ "على ما حكاه الخليلُ بن أحمد أنْ يقال لمن كان قائمًا "اقعد"، ولمنْ كان نائمًا أو ساجدًا اجلس"[85].

وفي بابِ معرفة المُطلَق والمقيِّد يظهرُ أثرُ هذا الإشكال الدّلاليّ بجلاءٍ، فالكأس لا تكون كأسًا حتّى يكونَ فيها شراب، وإلاّ فهو قدحُ أو كوب[86]، والحُلّة لا تكون إلاّ ثَوبَين، وهما إزارٌ ورداء مِن جنس واحدٍ، فإنْ اختلفا لم تُدْعَ حُلّة[87]، واللّحية لا تكون لِحيةً إلاّ شعرًا على ذَقَن ولحيَين[88]، والذَّنوب لا تكون ذَنوباً إلاّ وهي ملأى، ولا تُسمَّى خاليةً ذَنوبًا[89]، وليستْ هذه الشّروط التّقييديّة مِن محدِّدات المعنى عند اللاّحقِ.

وعلى صعيدٍ دلاليٍّ قريب ممّا تقدّم، قد يحدثُ أنْ تمّحيَ الفروق الدّلاليّةُ المُميِّزة بين كلماتٍ تنتسب إلى حقلٍ دلاليّ واحدٍ، ومِن ذلك "رمق"، و"لحظ"، و"لمح"، و"حدج"، والظّاهر أنّ لكلّ كلمةٍ دائرةً دلاليّة تلتقي مع الأخرى، ولكنّ هذا الالتقاءَ لا ينفي التّمايزَ الدّلاليّ، ومشكلةُ اللاّحق أنّه لا يقيم هذا التّمايزَ، ومِن ذلك:

- أنّ المرء إذا نظر إلى الشّيءِ بمجامعِ عينه قيل: رَمَقَه.
- وإذا نظر إليه مِن جانب أذنِه قيل: لَحَظَه.

([84]) انظر: ابن قتيبة، أدب الكاتب، 28-29.

([85]) انظر: الحريري، درة الغواص في أوهام الخواص، مكتبة المثنى، بغداد، (د.ت.)، 134، وانظر: ابن فارس، الصاحبي، 98-99، والسيوطي، المزهر، 1/404.

([86]) انظر: ابن فارس، الصاحبي، 99، والثعالبي، فقه اللغة سر العربية، 50، والسيوطي، المزهر، 1/449.

([87]) انظر: ابن فارس، الصاحبي، 99، والسيوطي، المزهر، 1/449.

([88]) انظر: ابن فارس، الصاحبي، 100 ، والسيوطي، المزهر، 1/449.

([89]) انظر: ابن فارس، الصاحبي، 100، والثعالبي، فقه اللغة وسر العربية، 52 ، والسيوطي، المزهر، 1/450.

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

- وإذا نظر إليه بعجلةٍ قيل: لَمَحَه.
- فإنْ رماه ببصرِه مع حدّة قيل: حَدَجَه.
- فإنْ نظر إليه نظرةَ الكارهِ أو المتعجّب قيل: شَفَنَه"[90].

ومِن مِثل ما تقدّم تفصيلُ أسماء السّيوف وصفاتها، فإذا كان عريضًا فهو صَفيحةٌ، وإذا كان لَطيفًا فهو قَضيب، وإذا كان صَقيلاً فهو خَشيب، وإذا كان ماضيَ الضّريبةِ فهو رَسوبٌ، وإذا كان فيه حُزوز مطمئنّةٌ فهو مُفقَّر، وإذا كان كَليلاً لا يَمْضي فهو كَهام، وإذا كان قدْ سُوِّي وطُبِع في الهندِ فهو إصْليت[91]، وغير ذلك كثيرٌ كثير، ومِنه صفات النّاقةِ، والحصانِ، والصّحراء، والرّياح، ذهبَ ذلك بذهابِ أهله، ومِن هنا تتولّد صعوبةُ النّصّ القديمِ، ولستُ أعني الألفاظَ الغريبةَ التي لا عهدَ للقارئ بها، بل تلكم الألفاظَ التي غدتْ مترادفةً مع غيرها لامّحاء ملامحَ دلاليّة خاصّةٍ، فهي متباينة باعتبارِ الأصلِ، ومترادفةٌ باعتبارِ الحالِ، والمجالات الدّلاليّة المعجميّة تنبسطُ وتنقبضُ مع حاجاتِ النّاس، فالمهنَّدُ، والكَهامُ، والإصْليتُ، وصفاتُ النّاقة والفرسِ لا يعني عند اللاّحقِ كما كان يعني عند السّابقِ، كلّ ذلك يعزِّز الأنظارَ القائلةَ بتعالقِ اللّغة بالمجتمع تعالقًا عضويًّا لا تنفصم عُراه، ولذلك يتعذّر على كثيرٍ منّا أنْ يلتقط الدّلالاتِ العميقةَ في النّصّ القديمِ، صحيحٌ أنّه يمضي معه، ولكنّه يفهمُه فهمًا معاصرًا في الغالبِ، وهذا باب عريضٌ للولوجِ في عالمِ اللّبسِ.

لِنَرْجِعِ النّظر في الثّلج عند "الأسكيمو"، إنّه يوحي في أذهانِ البيئةِ اللّغويّة العربيّة فكرةً واحدةً، وله صورةٌ صوتيّةٌ واحدة، ولكنّ الموغِلين في أرضِ الثّلج مِن الأسكيمو يذهبون إلى أنّ له مصطلحاتٍ متنوّعةً تستدعي معانيَ متنوّعة[92]، وهكذا كانتْ أسماء السّيف -أعني صفاتِه- وصفات النّاقة والصّحراء.

وقدْ ألمح الغزاليّ بثاقب بصرِه إلى مشكلةِ التّرادفِ، أي التباسِ المترادِف بالمتباين، "وذلك إذا أُطلِقت أسامٍ مختلفةٌ على شيءٍ واحد باعتباراتٍ مختلفة، ربّما ظُنّ أنّها مترادفة، كالسّيفِ، والمهنّد، والصّارمِ، فإنّ المهنّد يدلّ على السّيفِ مع زيادةِ نسبِه إلى الهندِ، فخالف إذًا مفهومُه مفهومَ السّيف"[93].

---

[90] انظر: الثعالبي، فقه اللغة وسر العربية، 122-124.

[91] انظر: الثعالبي، فقه اللغة وسر العربية، 250-251.

[92] انظر: جرومان، علم الدلالة، 37.

[93] انظر: الغزالي، المستصفى، 1/82، وانظر هذا الرأي: الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام، 1/25-26.

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

لِنَرْجِع النّظرَ في هذه الحادثةِ التي يتردّد قطباها بين إقامةِ الفروقِ الدّلاليّة وامّحائها: كان أبو عليّ الفارسيُّ بمجلسِ سيف الدّولة بحلبَ، وبالحضرةِ جماعةٌ مِن أهل العلم باللّغةِ، ومِنهم ابنُ خالويهِ، فقال ابن خالويه: أحفظ للسّيفِ خمسين اسمًا، فتبسّم أبو عليّ وقال: ما أحفظُ له إلاّ اسمًا واحدًا، وهو السّيفُ، فقال ابنُ خالويهِ: فأين المهنّد والصّارم وكذا؟... فقال أبو عليّ: هذه صفاتٌ، وكأنّ الشّيخَ لا يَفْرُق بين الاسمِ والصّفة[94].

ومِن مثالٍ تطبيقيّ آخرَ يظهر التّردّد بين القطبَين؛ بين مَن يستحضر الفروقَ الدّلاليّة، ويرى أنّ في كلّ كلمةٍ معنًى ليس في الأخرى، وبين مَن يرى امّحاءَ الفروقِ الدّلاليّة فيعدّها مترادفة، وقد تجلّى هذا التّردّدُ لمّا وَردوا على بيتِ البحتريّ:

فمُجَدَّلٌ ومُرَمَّل ومُوَسَّدُ　　　ومُضَرَّجٌ ومُضَمَّخٌ ومُخَضَّبُ

وقدْ ردّ الآمديُّ على مَن عاب قول البحتريّ لِما فيه مِن تَكرارٍ وترادفٍ لا يفيد جانحًا إلى نفيه، وإلى إقامةِ فروق دلاليّة دقيقةٍ، فالمُضرَّج مِن الضَّرَج، وهي الحُمرةُ المشرقة التي ليست بقانيةٍ، والمُضمَّخ يريد به غِلَظ الدّمِ، وأنّه قدْ صار في متانةِ الطّيب الذي يُتَضَمّخ به، "والمخُضّب أراد أنّ الدّم قدْ خضّبه كما يُخضَّب بالحناء، ففي كلّ لفظةٍ ما ليس للأخرى، وإنْ كانتْ الحمرةُ قد شمِلت الجميعَ"[95].

7- المعنى العاطفيّ:

تقدّم قبْلاً أنّ معنى كلمةٍ ما ليس مقصورًا على المعنى الإشاريّ، فَثَمّ معنًى سياقيّ، وآخرُ مجازيّ، وثالثُ هامشيّ، والمشكلةُ هنا أنّ كثيرًا مِن الكلمات يَتباينُ فهمُها بتباين عواملَ متنوِّعةٍ كالخبرة والثّقافةِ، ولعلّ هذا التّباينَ باعثُ عريض مِن بواعثِ اللّبس والافتراقِ في الفهمِ في الأحداثِ الكلاميّةِ، ومِن ذلك كلمة "محافظ"، فهي عند أوّل ملفوفةٌ بإيحاءات سلبيّة؛ إذ إنّه يرى فيمن يتمثّل هذا النّهجَ إحصارًا للعقل في أسوارِ مدينة فكريّةٍ يعدّها بائدةً أو مرذولة، وتضييقًا على النّفس يعقبُه تفويتُ كثير مِن لذاذاتِ الحياة، وهي عند مَن يقف وجاهَه ذاتُ ملامحَ إيجابيّةٍ، وألوانٍ معنويّة زاهيةٍ؛ ذلك أنّها مَفخرةٌ يستعصم بها، ويراها صِبغةً فارقةً تميّزه عن هُجْنة مُستقبَحَة في مدينةِ ذلك الأوّل.

---

(94) انظر: السيوطي، المزهر، 1/405.

(95) انظر: الآمدي، الموازنة، 1/400، والشعر للبحتري في ديوانه، تحقيق حسن الصيرفي، دار المعارف، القاهرة، 1963م، 1/76.

STUDENTS-HUB.com　　Uploaded By: anonymous

ومِن مِثل ما تقدّم "الإسلام"، و"الإرهابُ"، و"الفدائيّ"، و"الحريّة"، و"الأبوة"؛ لِنَنظرْ في السّلام: إنّه عند "زيد" ممّا يُستعاذُ بالصّمتِ مِن أمثالِه، فينادي بمقاومةِ التّطبيعِ، أمّا عند "عمروٍ" فهو ممّا يُستلاذ به، وإنْ لم يَنْدَ مِنه بطائلٍ، فينادي بالتّطبيع، وينشأ عن الافتراقِ الأوّلِ في الظّلالِ الهامشيّة التي تكتنف دلالةَ السّلام افتراقٌ ثانٍ في الظّلال الهامشيّةِ التي تكتنف التّطبيعَ. "والكرم" ذو دلالةٍ هامشيّةٍ متباينة بتباينِ الأفرادِ، فقدْ يكون عند أوّل وسمًا عربيًّا خالصًا أصيلاً، فيعتزّ به، ويمجّده إلى حدّ التّباهي، وهو عند ثانٍ تبذيرُ باعثُه الطّيش أو سوءُ التّدبير، و"الرّجولة" كذلك أمرها.

والحقّ أنّ مُثُلَ هذا المطلبِ كثيرةٌ عن وفرةِ ما يقفُ عليه المرءُ في زحمةِ الشّارع أو البيتِ الأسْريّ، والذي يسترعي الانتباهَ أنّ المشتركين في الحدث الكلاميِّ لا يختلفان في تعيينِ مفهوم المعنى الإشاريِّ المركزيّ، ولكنّهما يختلفان فيما يكتنِفُ المعنى المركزيَّ مِن معانٍ خاصّةٍ، وظلالٍ هامشيّةٍ، ومِن ذلك أنّ رجلاً ذهب مقابِلاً لآخرَ طلباً للعمل، فقال له الأوّلُ: وظيفتُك أنْ تكون "ناطورًا" للمصنعِ، فحَنِق الثّاني وقال: لا تقلْ: أريدك ناطورًا، بلْ قل: أريدُك حارسًا، ولكنّ الأوّلَ لم يلتفتْ إلى طلبِه اعتقادًا مِنه بأنْ لا ضيرَ مِن كلمتِه ولا سوءَ أدب، فهو في بيئتِه وعُرفِه الخاصّ يستعملُ هذه الكلمةَ دون أنْ يكون لها إيحاءٌ سلبيّ، أمّا الثّاني فقد كان لها إيحاءاتٌ سلبيّة، وظلالٌ موحِشة ضاقتْ بها نفسُه، فاحتدم النّقاش بينهما حول كلمةِ "ناطور"، وليس مِن شكّ في أنّه نقاش باعثُه التّباينُ فيما يحيطُ بالمعنى المركزيّ مِن ظلالٍ ومشاعرَ، وكانت نهايتُه خروجَ الثّاني غضبانَ أسِفًا وفي نفسِه شيء.

ومِن مِثل ما تقدّم أنّ قسم اللّغةِ العربيّة عقد ندوةً اشترك فيها ثلّةٌ من أعضاء القسمِ، وقد تحدّث أحدُ الأساتذة عن ملحظٍ أسلوبِيّ، وهو الانحرافُ اللّغويّ، ويعني به التّعبيرَ اللّغويَّ المفارقَ لأصل الوضعِ أو المألوفِ، كقولنا: مات الحجرُ أو الموت، ثمّ سوئِل ذلك الأستاذُ فيما صدر عنه مِن ملاحظَ وآراءٍ، وقد أنكر عليه أستاذٌ آخرُ بكثيرٍ مِن الأدب والدّماثةِ هذا المصطلح؛ إذْ إنّه يوحي للخاطرِ الأوّل معنًى هامشيًّا سلبيًّا، واقترح ساعتَها الانعطافَ اللّغويّ، أو الانزياحَ، فردّ عليه الثّاني مُحاميًا عن وجاهةِ مصطلَحه، محتجًّا بأنّه تعبيرٌ اصطلاحيّ يكاد يكون متعارَفًا عليه، والمُستخلَصُ مِن هذه الحادثةِ أنّ ثَمّ افتراقًا في الحدثِ الكلاميّ باعثُه افتراقٌ في ظلالِ المعنى المركزيّ وإيحاءاتِه.

والذي ينبغي التّنبيه عليه أنّ ثَمّ عواملَ متنوّعةً تزيد مِن تجلّي هذا اللّبس، ومِنها تباينُ المكان، ومِن أمثلةِ ذلك كلمة "السّجن"، فقدْ كانتْ في الأرض المحتلّةِ ذاتَ دلالةٍ هامشيّة مُعْجِبةٍ تدلّ على النّضال؛ إذ إنّه –أعني السّجن- مَفْخَرة تُنْشَد فيها الأهازيجُ وألحان العودةِ، وهي عند دولةٍ أخرى آمنةٍ مستقرَّة ذاتُ دلالة سلبيّةٍ؛ ذلك أنّه مأوى أهلِ الجناياتِ والجرائم. وللهوى

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

يدٌ في تشكيلِ دلالة سلبيّةٍ أخرى، فهي عند المحتلِّ المغتصِب ذاتُ دلالةٍ سلبيّةٍ؛ ذلك أنّه مأوى "المخرِّبين" وعقابُهم.

وللزّمانِ يدٌ في حياكةِ ظلالٍ سلبيّة أو إيجابيّةٍ حول المعنى المركزيِّ، ومِن ذلك قولنا: "نكح"، و"حُبلى"، فالشّائعُ عندنا عوضًا عن هاتَين الكلمتَين "تزوّج" و"حامل". وللمقامِ يدٌ في تشكيلِ هذا الملحظِ أيضًا، فَثَمّ ألفاظٌ تصلح في مقامٍ، ولا تكاد تصلحُ في مقامٍ آخرَ، ومِن ذلك "العَقيلة"، فالشّائع في الأسماعِ أنْ يُقال: جاء المَلِكُ وعَقيلتُه، وألاّ يقُال: جاء المَلِكُ وحليلتُه أو امرأته.

ولستُ أزعم أنّ فيما تقدّم لَبسًا واحتمالاً، بل المقصِد مِنه بيانُ المعاني الهامشيّة، والظّلالِ الإيحائيّة التي تحيط بالمعنى المركزيّ، وما مِن ريبٍ أنّها متبدِّلة بتبدّلِ المكانِ، والزّمانِ، والمقام، والهوى؛ كلّ ذلك يجمعُه كلمةٌ واحدة، وهي السّياقُ.

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous